Sadness in the Diwan of the notice of women in the early Islamic era a study of causes and appearances

الحزن في ديوان أشعاء النساء في عصر صدر الإسلام دراسة في الأسباب والمظاهر

Dr. Maha Fawaz Khalifa
University of Anbar/College of Arts
Maha85@uoanbar.edu.iq

م .د. مها فواز خليفة الدليمي
جامعة الأنبار / كلية الآداب

Receive Date: 23/4/2020 Accept Date: 7/5/2021 Publish Date: 30/6/2021

Doi: 10.37654/aujll.2021.171096

Abstract :
The theme of sadness is associated with the psychological, social and philosophical dimensions that have direct link with the real life and effect on all people, especially in the early Islamic era. This era represents an important transitional phase in the history of mankind. Studying the theme of sadness depends on combining between the descriptive, analytic approach and the psychological method. The research consists of an introduction and two sections. The introduction deals with the linguistic symbol of sadness, then the technical token of the Islamic and psychological thought. The first section deals with the most important psychological causes leading to sadness and ends with a general view of the nature of the Islamic life. The second section is concerned with the implications of these causes. The research ends up with the most important findings, then a list of reference.
Keywords: Sadness, notice of women, the early, Islamic era, causes of sadness, appearances of sadness.

الملخص:
موضوع الحزن يرتبط بالأبعاد النفسية والاجتماعية والفلسفية التي لها صلة مباشرة بالحياة الواقعية وممارسة تأثيرها على جميع الأفراد وخاصة عصر صدر الاسلام والعصر الاسلامي

بما يمثله من مرحلة انتقالية مهمة في تاريخ البشرية فضلا عن تحديد عينة البحث بالشواعر حصرا هو السبب وراء اختيار الباحث لهذا الموضوع.
تعتمد دراسة موضوع الحزن على الجمع بين المنهج الوصفي التحليلي والطريقة النفسية. يتألف البحث من مقدمة ومبحثين. تتناول المقدمة الرمز اللغوي للحزن، ثم الرمز الفني للفكر الإسلامي والنفس. في المبحث الأول يتناول اهم الاسباب النفسية المؤدية للحزن وينتهي برؤية عامة لطبيعة الحياة الإسلامية. بينما يتعلق المبحث الثاني بدراسة المظاهر الناتجة عن تلك الاسباب. وأختتم البحث بأهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة، ثم قائمة بالمراجع والمصادر.
أخيرًا أقول إن الحزن وآثاره على الشعراء الإسلاميين هو موضوع كبير ومتشعب حاولت تقديمه بشكل مبسط عند شواعر العصر الاسلامي لما هو معروف عن المرأة بتأثرها الشديد بفعل عاطفتها الجياشة.
الكلمات المفتاحية: الحزن، أشعار النساء، صدر الإسلام، أسباب الحزن، مظاهر الحزن

المقدمة:

قد يكون من الصعب للباحث الأدبي الإحاطة بدوافع القول لدى الشعراء، وذلك لتمازجها مع العاطفة الإنسانية المختلفة، فحيث ما وجدنا دافعا نفسيا وجدنا الشعر الذي يستحق أن يكون معبرا عن المشاعر، لا مجرد نظم للحروف والكلمات على أوزان معدّة ومحدودة سلفا و"لا شك في أنّ الإلمام بذلك ليس ميسورا، فدوافع الشعر كثيرة ومتشابكة، وتجارب الشعر تختلف من شاعر إلى آخر، وما يصح أن يكون دافعا لشاعر قد لا يعني شيئا لآخر"[(1)].

والمتتبع لأقوال العلماء والنقاد والشعراء والكتاب يلحظ أنَّ معظم هؤلاء قد نأى بالحزن بعيدا عن دائرة دوافع القول الشعري، فبِشْر بن المعتمر في صحيفته حدد دوافع نظم الشعر في الشهوة المفرطة في الشيء والمحبة والغضب[(2)]، دون أن يذكر الحزن من قريب أو بعيد، وهذه الصحيفة تعدُّ واحدة من أهم التنظيرات النفسية لدوافع قول الشعر وسواها من متعلقاته.

والحديث عن دوافع الشعر يطول فابن قتيبة تنبه إلى ضرورة وجود مثير يدفع الشاعر لقول الشعر وذلك في مقولته المشهورة: "وللشعر دواعٍ تحث البطيء وتبعث المتكلف، ومنها الطمع ومنها الشوق ومنها الشراب ومنها الغضب"[(3)].

فقد أحجم عن ذكر الحزن دافعا رغم أن عبارته كانت مفتوحة الدلالة، فقوله (منها) يعني أن هنالك ما لم يُذكر بدلالة حرف الجر (من) الدالة على التبعيض، إلا أنه بدأ بالأهم ثمَّ المهم أو الأكثر شهرة على الأقل، رغم أن الحزن في دواوين الشعراء قد أخذ حظا وافرا وأفرد لنفسه غرضا بعينه ألا وهو الرثاء، وكذلك فعل ابن رشيق القيرواني حين حصر الانفعالات المؤدية لقول الشعر في أربعة هي: الرغبة والرهبة والطرب والغضب[(4)].

[(1)] الشعر الأموي في مقاييس النقاد العرب القدامى حتى نهاية القرن الخامس الهجري: نغم هادي جويد العامري، رسالة ماجستير، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، 1995: 21

[(2)] ينظر: البيان والتبيين: أبو عمر بحر بن الجاحظ (255هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط5، 1985: 1/ 138

[(3)] الشعر والشعراء: ابن قتيبة الدينوريي، أبو محمد عبد الله بن مسلم (276هـ)، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، 1966: 1/ 78

[(4)] ينظر: البيان والتبيين: 1/ 138

وهنالك الكثير من الأقوال والإشارات التي تبين صحة ما ذهبنا إليه من استبعاد الحزن عن مثيرات القول، إلا بعض الإشارات هنا أو هناك مثل ما ينسب إلى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وهو أحد الفقهاء السبعة في المدينة، وهو معلم عمر بن عبد العزيز حينما قيل له: كيف تقول الشعر مع الفقه والنسك؟ فقال: لا بدّ للمصدور أن ينفثَ[(1)]، فإن المشاعر الحبيسة إذا تجاوزت مداها وجدت سبيلها للظهور إذا ما كان الإنسان ذا موهبة، وهذا ما يسمى بالنفث[(2)].

ومن هنا جاءت فكرة البحث قائمة على تتبع الحزن بألفاظه وأسبابه ومظاهره في ديوان أشعار النساء في صدر الإسلام، لما هو معروف عن المرأة من العاطفة الجياشة وتأثرها الشديد مما استطاعت أن تعبر عنه بكلماتها.

وبما أن الرمز اللغوي أو الإشارة اللغوية للحزن تملك ثراءً دلاليا، فإن ذلك يدعو إلى تعدد التعريفات الخاصة بها، فيقال في تعريف الهم: هَمَّه الأمر هَمًّا ومَهمةً: أحزنه، ويقال في تعريف الأسى: أسيتُ عليه أسىً: حزنتُ، وهكذا نجد في المعجم مفردات مثل: الهم والغم والأسى والكآبة والأسف والحسرة والجزع...، وهي مضمومة بعباءة حقل دلالي واحد مع وجود اختلاف بسيط وبسمات دلالية مشتركة، وحري بالذكر أن قدماء أهل اللغة –بعضهم- قد وسع من دائرة الحقول الدلالية استنادا إلى توزيع الألفاظ اللغوية على أساس ما يحكمها من عَلاقات دلالية مختلفة، فهناك عَلاقة التضاد والترادف، والمشترك والمتقابل[(3)]، وهناك علاقة الجزء بالكل، ثم أن البحث يجد علاقات تقوم على التداعيات لما هو خارج النص اللغوي وهو ما له علاقة بالنص[(4)].

كل هذه العلاقات هي التي تبني هيكلية النص وتستدعي الألفاظ والأفكار، إلا إن السياق يتكفل بتحديد دلالة الكلمة تحديدا دقيقا، وهو ما تصدرت له مؤلفات الفروق اللغوية.

إن الحزن في اللغة نقيض الفرح، والأسى هو الحزن، أما الأسف في اللغة فهو المبالغة في الحزن والغضب، والحسرة هي التلهف على أمرٍ فات، وهو معنى مأخوذ من قولهم: حسر عن ثيابه أو درعه، أي: أزاله وخلعه فانكشف، وذلك لأن شدة التلهف والندم فيها كشف حال صاحبها فيظهر أمره جليا عليه، وقد يكون مأخوذا من قولهم: حسرت الناقة أو الدابة، إذا انقطع سيرها ولم تعد تقوى على السير، كما يمكن أن يجيء من قولهم: حسر البصر إذا كلَّ؛ لأن الحسرة حزن وندم شديدان يجعلان من صاحبهما حسيرا، أي كليلا ضعيفا لا يقوى على احتمال ما هو فيه من حال الحزن والندم إعياءً وضعفا كالدابّة الحَسْرى[(5)].

والهم: هو الفكرُ في ازالة المكروه واجتلاب المحبوب، والغمُّ: معنى ينقبض القلب معه ويكون لوقوع ضرر قد كان، أو توقع ضرر يكون أو يتوهمه، وقد سمي الحزن الذي تطول مدته حتى يذيب البدن همًّا، واشتقاقه من قولهم: انهَمَّ الشحم إذا ذاب، والكرب: إذا تكاثف الغم مع

[(1)] ينظر: نفسه: 4/ 64

[(2)] ينظر: الشعراء نقادا، دراسات في الأدب الإسلامي والاموي: د. عبد الجبار المطلبي، دار الشؤون الثقافية العامة، المطبعة الأولى، بغداد، 1986: 160

[(3)] ينظر: ينظر: علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي: الأستاذ الدكتور هادي نهر، عالم الكتب الحديث، عمان الأردن، 2008: 469

[(4)] ينظر: علم الدلالة والتطبيق في التراث العربي: أ. د. هادي نهر، عالم الكتب الحديث، عمان- الأردن، 2008: 469

[(5)] ينظر: معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم لبيان الملامح الفارقة بين الألفاظ المتقاربة المعنى والصيغ والأساليب المتشابهة، د. محمد محمد داوود، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2008: 56

ضيق الصدر، والكآبة: أثر الحنين البادي على الوجه[(1)]، ومن خلال هذا كله تتضح علاقات متعددة ربطت المعاني، فالاستدعاء أو اللزوم مثلا يربط الكآبة بالحزن، إذ يقال: علَّته كآبة، ولا يقال: علاه حزن أو كرب؛ لأن الحزن لا يُرى ولكن دلالته على الوجه هي التي تُرى.

والبثُّ: حزن ينبث ولا ينكتم، جاء في كتابه تعالى: "قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ"[(2)]، فعطف –سبحانه- الحزنَ على البث من باب عطف العموم على الخصوص، وعطف البث على الحزن قرينة على اختلاف معناهما، والملمح المميز للبث بالإضافة إلى الشدة والصعوبة هو الإفضاء به وإظهاره، مما سبق يتضح أن هذه الألفاظ متقاربة المعنى فأعمها الحزن وبقية الكلمات لها ملامح دلالية تميزها "فالأسى يميزه الامتزاج بين الحزن والغضب بالإضافة إلى ملمح الشدة، والبثُّ يميزه ملمح الظهور والإفضاء بمكنون النفس إلى الآخرين، والحسرة تجمع بين الحزن واللهفة والندم والضعف بالإضافة إلى تعلقها بما فات مع ملمح الشدة أيضا، والغم يميزه ملمح الإطباق أي ثقل الحزن على نفس صاحبه حتى يشمله فيكاد يغطيه"[(3)].

فالرمز اللغوي أشبه بدائرة لا يفترق طرفاها إلا لكي يلتقيا وهما حين يلتقيان يضعان حول المعنى العائم إطارا، فيضعان لها بذلك معنى محددا، أما الرمز الفكري الإسلامي فقد نهى الله عن الحزن في أكثر من موضع في القرآن الكريم، فقد قال –ﷻ- "وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ"[(4)]، وغيرها كثيرة، ونظرة سريعة في الآيات التي ذُكر فيها فيها الحزن في القرآن الكريم تظهر لنا أن هذا النهي منصبٌ على الحزن المذموم الذي يؤدي إلى الجزع وعدم الاستسلام لمشيئة الله وعدم التفاؤل بمراد الله وكما هو معروف فلا تكليف بالمحال، فالحزن أمر طبيعي في النفس البشرية ولا يُنهى عنه نهيا قطعيا، فالحزن المؤدي إلى الإحباط والتأثير على مقاصد الشريعة الإسلامية من حفظ الدين والعقل والمال والنسل هو الحزن المنهي عنه، وسنلاحظ في القادم من البحث هذا التحول الأيدلوجي في الفكر الإسلامي ضمن آليات التعبير والتصدي للحزن.

المبحث الأول: اسباب الحزن

لعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا أن الموت هو الباعث الأول للحزن لارتباطه باليأس والخوف والألم و"إذا كان الموت حقيقة لا يستطيع مناقشتها اثنان، فإنه صار بالنسبة للأدب ظاهرة لا يستطيع إنكارها دارس"[(5)]، ولعله أخذ في العصر الإسلامي منحى مختلفا نوعا ما مع مع وجود مميزات فريدة من نوعها لم نرها في العصر الجاهلي ولا في العصور اللاحقة، فلأول مرة في تاريخ الشعر العربي وجدنا رثاءً لنبي، إذ كان لوفاة النبي محمد (عليه الصلاة والسلام) انعطافة كبيرة في التعبير عن الحزن على جميع الأصعدة فهذا الحدث الجلل والفاجعة الكبيرة

[(1)] ينظر: الفروق اللغوية: الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق: محمد باسل العيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط4، 2006: 297- 298

[(2)] سورة يوسف: 86

[(3)] معجم الفروق الدلالية في القرآن الكرين لبيان الملامح الفارقة بين الألفاظ متقاربة المعنى، والصيغ والأساليب المتشابهة: د. محمد محمود داوود، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2008: 53

[(4)] سورة آل عمران: 139

[(5)] ظاهرة الحزن في شعر نازك الملائكة أسبابها وقضاياها المعنوية والفنية: د. سالم أحمد الحمداني، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الموصل، 1980: 36

كان لا بد أن يترك أثره في النفوس لتنعكس في مرايا الشعر ولا سيما في شعر الشواعر الإسلاميات، فنجد كثيرا من الشواعر قد نظمن في هذا الباعث ما تتفطر له القلوب، فهذه أروى بنت عبد المطلب ترثي النبي قائلة[(1)]:

ألا يـــا رســـول الله كنـــتَ رجائنـــا ** وكنـــتَ بنـــا بـــرًّا ولـــمْ تَـــكُ جافيـــا

وكنـــتَ بنـــا روفـــا رحيمـــا نبينـــا ** ليبـــكِ عليـــكَ اليـــوم مـــن كـــانَ باكيـــا

إن الشاعرة تعيش واقع الصدمة فهي تحدث النبي (عليه الصلاة والسلام) حديث ود، فهو الرجاء والبر وصاحب الرأفة والرحمة النبي، وأي فاجعة تستحق البكاء أكثر من هذه الفاجعة، لذا لجأت للام الأمر الداخل على الفعل المضارع (ليبكِ)، ثم تلحقه أيضا بالتنكير من خلال قولها (من كان باكيا) صغيرا أم كبيرا، امرأة أم رجلا، فالكل عليه أن يبكي لهذا المصاب الجلل، وقد تشكل نصها اللغوي معبرا عن حزنها من خلال سرعة الأداء الصوتي في تخفيف الهمز في قولها: (روفا) بدل (رؤوفا)، وفي حذفت الفعل (كنت) في قولها: وكنت بنا روفا رحيما نبينا، والتقدير كنتَ نبينا، أو على حذف أداة النداء، إذا كان المعنى: يا نبينا، ولا سيما إن حذف ياء النداء يحمل بين طياته معنى قرب المنادى.

وحين تأتي بركة بنت ثعلبة راثية -رضي الله عنها- مولاة رسول الله (ﷺ) قائلة[(2)]:

عـــين جـــودي فـــإنّ بـــذلك للدمـــ ** ـــــعِ شـــفاءٌ فـــأكثري ملبكـــاءِ

حـــين قـــالوا: الرســـول أمســـى فقيـــدا ** ميتـــا كـــان ذاك كـــل بـــلاءِ

النص يتجاذبه الحزن من كل جانب فالدمع جارٍ لأمر جلل ألا وهو قولهم (الرسول أمسى فقيدا) فنلاحظ أنها اختارت أن تصدر الخبر (حين قالوا) ويحتمل الخبر الصدق والكذب، يا ليته كان كذبا فمتاحاتها الأسلوبية متعددة لكنها مالت لهذا رغبة في تكذيب الخبر الذي يأبى إلا أن يكون حتى تصدر القول (الرسول) وتختار لهذا الحدث زمنا يوحي بالظلام (أمسى) إنه ظلام نفسي قبل أن يكون ظلاما زمنيا، ويأبى الحزن أن يتوقف فقالت: (كل البلاء) ففقد النبي أعظم ما يمكن أن ينزل من البلاء بل هو كل ما يمكن أن ينزل، وهي كذلك تختار سرعة الأداء الصوتي سبيلا للتعبير، وذلك من خلال حذفها نون (من) في قولها: ملبكاء

إن متابعة مثل هذه المشاعر في النصوص يكشف عن كمية الألم والإبداع في الوقت نفسه وهذا الكلام لا يُساق جُزافا، فعلماء النفس يقررون "أن الإنسان الذي يعاني هو نفسه الإنسان الذي يبدع"[(3)]، وعلينا عند التصدي لتحليل عملية الإبداع أن نهتم بالدوافع اللاشعورية للمبدع والشعورية وقبل الشعورية فضلا عن الظرف الاجتماعي وفي حال تجاهلنا كل هذه المعطيات سنحصل على طراز سيكولوجي هزيل في تحليل النص الأدبي، فبركة بنت ثعلبة هي حاضنة الرسول (عليه الصلاة والسلام) فمن الطبيعي أن ترى أن العالم أظلم لمعرفتها بموت النبي محمد (ﷺ) فهو معها مذ كان رضيعا حتى وفاته.

[(1)] ديوان أشعار النساء في صدر الإسلام، دراسة وجمع وتحقيق ليلى محمد ناظم الحيالي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، 1989: 12

[(2)] ديوان أشعار النساء: 28

[(3)] التفسير النفسي للأدب: د. عز الدين اسماعيل، دار المعارف: 7

ولا بد لنا من وقفة متأنية مع غرض الرثاء بعده أهم الأغراض وأكثرها شيوعا في أشعار النساء، ففيه الصدق والصراحة في التعبير وقوة التأثير حتى أن بروكلمان قال: "لعل المرثية الشعرية نشأت نشأتها الاولى من ندب النوائح المجرد من القالب"[(1)].

ومن أبرز الشواعر اللاتي تميزن بالمراثي وبرعن فيها الشاعرة صفية[(2)]

أعيْنـــيَّ جُـــوْدا بـــدمع ســـجم ** يبـــادر غربـــا بمـــا منهـــدم

أعيْنـــيَّ فاســـحنفرا واســـكبا ** بوجـــدٍ وحـــزنٍ شـــديد الألـــم

علـــى صـــفوة الله ربِّ العبـــادِ ** وربِّ الســـماء وبـــاري النســـم

علـــى المرتضـــى للهـــدى والتقـــى ** وللرشـــد والنـــور بعـــد الظلـــم

علـــى الظـــاهر المرســـل المجتبـــى ** رســـول تخيّـــره ذو الكـــرم

إن الدوال اللغوية تتدافع للدخول في دائرة الحزن مباشرة بلا مقدمات، فالعين تجود بدمع سجم أي: مصبوب، وهو ما يظهر دلالة الكثرة وعدم التوقف، وأردفت الشاعرة ذلك بطلب مماثل في البيت الثاني من خلال قولها (فاسحنفروا واسكبا)، ويقال اسحنفر الشيء: إذا مضى وأسرع، ثم تبدأ بتعداد مناقب المصطفى (صلوات ربي عليه وسلامه) ليكون لتكرار الأنساق البنائية في النص دلالة ارتجال الأبيات ولا سيما في قولها: على صفوة الله، على المرتضى، على الظاهر، ومن ناحية أخرى يتجلى التوازن في قولها (للهدى والتقى، وللرشد والنور)، ثم أننا نجد التقسيم ظاهرا في قولها (الطاهر المرسل المجتبى)، ولا يتجاوز البحث قضية نسق المضاف والمضاف إليه في قولها: صفوة الله، رب العباد، رب السماء، باري النسم)، ويبدو من سرعة النص والمشاعر الجياشة تناسبا كبيرا ولا سيما أن في النص تنوع صوتي وتعبيري وهو ما يحسب للشاعرة، حيث أن الحزن الشديد وما يعتصرها من ألم لم يمنعها من إنتاج نص معبر صادق جميل، فالشاعرة هنا تطلب من عينها البكاء على النبي محمد (ﷺ) بدموعٍ جاريةٍ معبرة عن حزنها وألمها، فقد كانت تتألم وتتوجع لفراقه توجعا شديدا، وكيف لا وهو مرسل ليهدي الناس ويرشدهم إلى الطريق المستقيم ويخرجهم من الظلمات إلى النور، وهي معانٍ لا شك تحمل بين طياتها الجِدة، فما كان في رثاء ميت سابق هذه الصفات وإن كان الأمر برمته جديدا على غرض الرثاء وسببا عظيما من أسباب الحزن والألم.

هذه الجدة في المضمون لم تسعفها جدّة التشكيل، فالسيدة صفية قد سلكت سبيلا مقصودا في افتتاحية القصيدة بالبكاء، حيث طلبت من العين ألَّا تبخل بالدمع المنسجم، وهي العمة المفجوعة بالمصاب الأعظم –فقد النبي وابن الأخ- وبذلك لا تتوانى في دعوة الآخرين على البكاء فتقول:

أفـــاطمُ بكّـــي ولا تســـأمي ** بصـــبحك مـــا طلـــعَ الكوكـــبُ

[(1)] تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان، نقله إلى العربية: د. عبد الحليم النجار، الطبعة الثالثة، دار المعارف، مصر، 1959: 1/ 164

[(2)] ديوان أشعار النساء: 94- 95

هـــو المـــرء يبكـــي حـــقَّ البكـــاء ** هـــو الماجـــدُ الســـيدُ الطيِّـــبُ

وكأني أشعر بقلبها وهو يتفطر ألما حتى لا تجد سبيلا إلا لمناداة فاطمة مواسية ومعزية بأبيها، فالصبح قد أظلم ولا ينفك سواد الحزن عنها، وكيف لا والسيد الماجد الطيّب قد مات (صلوات ربي عليه وسلامه)، وهكذا كان للسيدة صفية وقريباتها وأخواتها مقطوعات كثيرة تبين ألَمَهُنَّ وما أصابهن من حزن لفقد النبي، يندبنه ويأبنَّه، وهي لا تخرج عن هذه الشواهد من حيث الشكل والمضمون.

أما الشاعرة أروى بنت الحارث بن عبد المطلب فقد قالت[(1)]:

ألا يـــا عـــين ويحـــك أســـعديني ** بـــدمعكِ مـــا بقيـــتُ وطـــاوعيني

ألا يـــا عـــين ويحـــك واســـتهلّي ** علـــى نـــور الـــبلادِ وأســـعديني

فـــإنْ عـــذلتْكِ عاذلـــة فقـــولي ** عـــلامَ ومِـــمَّ ويحـــك تعـــذليني

علـــى نـــور الـــبلادِ معـــا جميعـــا ** رســـول الله أحمـــدَ فـــاتركيني

بلى هي فاجعة أصابت العباد والبلاد، فالأسى عمَّ والنور انطفأ في العيون، والحروف لا تسعف، والدمع أسبق فيها، فلا عذل بنافع، ولا بقاء صحبة تضيء بعد نور البلاد (عليه الصلاة السلام)، وهذا ما يدعو إلى أن تذهب السيدة صفية مرة أخرى إلى أن تصف حزنها في قولها[(2)]:

إذ رأينـــا بيوتـــه موحشـــات ** لـــيس فـــيهنَّ بعـــد عـــيشٍ حبيبـــي

أورث القلـــب ذاك حزنـــا طـــويلا ** خـــالط القلـــب فهـــو كـــالمرعوبِ

ليـــتَ شـــعري وكيـــف أمســـى صـــحيحا ** بعـــدَ أن بِـــيْنَ بالرســـول القريـــبِ

أعظـــم النـــاس فـــي البريـــة حقـــا ** ســـيد النـــاس حبّـــه فـــي القلـــوبِ

فـــإلى الله ذاك أشـــكو وحســـبي ** يعلـــمُ الله حـــوبتي ونحيبـــي

لقد خيم الحزن على الجمادات فكيف به وإذا هو بالقلوب؟!، حتى أن شدة الحزن أعجبتْ صاحبها مرور المساء عليها وهي صحيحة سليمة، وهو ما يلاحظ تكراره في قولها (أورث القلب، وخالط القلب، وحبه في القلوب) فكأن الكلام لا يجدي نفعا ولا يستطيع وصولا لما في القلب من شدة الأسى.

إن رزية موت المصطفى فاقت كل رزية إلا إنها لم تتخلَّ عن تعاليم الدين الذي جاء به الحبيب محمد (ﷺ) فلا سبيل إلا لبث هذا الحزن لرب العباد فتقول:

---

(1) ديوان أشعار النساء: 6.

(2) ديوان أشعار النساء: 78

فـــــإلى الله ذاك أشـــــكو وحســـــبي ** يعلـــــمُ الله حـــــوبتي ونحيبـــــي

ولم تقتصر الشواعر على دعوة عيونهن للبكاء وحسب، بل دعون مظاهر الطبيعة وظواهرها إلى مشاركتهن البكاء والحزن، فقد كن يرين إن الطبيعة كانت هي الأخرى حزينة لهذا الفقد العظيم، فهذه السيدة فاطمة (رضي الله عنها) ترى أن مظاهر الطبيعة أمست على غير ما جُبِلتْ عليه حين سمعت نبأ فقد النبي فقالت[(1)]:

أغبـــرَّ آفـــاق الســـماء وكـــوِّرت ** شـــمس النهـــار وأظلـــم العصـــرانِ

فـــالأرض مـــن بعـــد النبـــي كئيبـــة ** أســـفا عليـــهِ كثيـــرة الرجفـــان

فالسيدة فاطمة الزهراء نقلتنا إلى مستوى آخر من الحزن لفقد النبي، فهو النبي والوالد والسند الذي كانت تلجأ إليه، فتقول في مشهد حزين ينفطر له القلب ألما[(2)]:

قـــد كنـــتَ لـــي جـــبلا ألـــوذ بظلـــهِ ** فـــاليوم تســـلمني لأجـــرد ضـــاحِ

قـد كنـتَ جـار حميتـي مـا عشـت لـي ** واليـوم بعـدك مـن يـريش جنـاحي

وأغـــضُ مـــن طرفـــي وأعلـــم أنّـــه ** قـــد مـــات خيـــر فوارســـي وســـلاحي

لا حزنَ كفقد الأب الذي عاشت طفولتها وحياتها متعلقة به، فهي ترى فيه كل الرجال، ولا عجب حين يقال: كل فتاة بأبيها معجبة، وفراقه يدعو إلى حزن يفوق أي حزن آخر، حتى أن مشاعرها الجياشة تكاد تتنافر من السطور لتنزل دمعا من العين أو لوعة في قلب من يقرأ، فلغة التعبير عن الأحزان تتميز على غيرها في الموضوعات الأخرى؛ لاحتوائها على دلالات خاصة كثيرا ما تتحول إلى دلالات جمعية بفعل اشتراك العاطفة، فهذه أمّنا الصديقة ابنة الصديق تقول في رثاء أبيها أبي بكر الصديق[(3)]:

إنّ مـــاء الجفـــون ينزحـــه الهـــ ** ـــمُّ وتبقـــى الهمـــوم والأحـــزان

لـــيس يأســـو جـــوى المُـــرازئ مـــاء ** ســـفحته الشـــؤون والأجفـــانُ

فهي تقول عالم المحزون لا يعرفه أحد ولا يواسيه أحد ولا يداوي جرحه أحد، بل حتى الدمع الذي يجري من مجاري الدمع يذهب ليبقى الحزن والهم يأكل الأكباد.

وفي الأسى على الأخ في شعر النساء الشواعر ديوان شعر خلدته الخنساء حتى أنها كانت تطوف بالبيت وتلطم، فرآها عمر بن الخطاب فقال: إن في الناس من هو أعظم منك مصيبة والإسلام حرَّم ذلك فكفّتْ عن ذلك وقالت ترثي أخويها[(4)]:

---

(1) نفسه: 174

(2) ديوان أشعار النساء: 170

(3) نفسه: 138

(4) ديوان الخنساء، دار الأندلس، بيروت- لبنان: 108

هريقـــي مـــن دموعـــك أو أفيقـــي ** وصـــبرا إن أطقـــتِ ولـــن تطيقـــي

ولكنـــي وجـــدتُ الصـــبرَ خيـــرا ** مـــن النعلـــين والـــرَّأس الحليـــقِ

وكان من عادة العرب حلق الرأس واللطم حزنا على ميت عزيز، غير أنها اكتفت عن ذلك ووجدت الصبر خيرا من تعفير رأسها وضربه، وهي وإن كانت تمثل حالة شعرية فريدة من نوعها في الشعر ولا سيما المراثي، إلا أن هذا الحزن لديها أخذ طابعا آخرا بعد الإسلام باعترافها بأن الصبر خير من اللطم وتعفير الرأس بالتراب، بل يقال أن أولادها الأربعة قتلوا في معركة القادسية سنة 638 ميلادية بعد أن أوصتهم ألا يجبنوا ويجاهدوا حتى الموت، ولما علمت بموتهم قالت: "الحمد لله الذي شرفني بموتهم"[(1)]، وهذا تحول كبير فالإسلام قد هذّب النفس وكسر من سلطة الحزن وألغى كثيرا من مظاهر الجزع والأسف.

ومما قيل في فقد الأب والأخ معا قول ابنة حكيم بن جبل العبدية من عبد القيس التي قتل أخوها في البصرة يوم الجمل فقالت في رثائه ورثاء أخيها[(2)]:

يـــا آل عبـــد القـــيس أزرى بالأمـــل ** قَتـــل اليـــوم حكـــيمٌ بـــن جبـــلْ

قَطعـــتْ رجـــلُ أبـــي مـــن ســـاقهِ ** كـــل شـــيءٍ مـــا خـــلا هـــذا جلـــلْ

أن مقتل أخيها أثار منها حزنا قديما فرثت أباها كأنها كانت تعد بقاء أخيها مواساة لها، فلما مات شعرت أن أباها قد مات حقا الآن بانقطاع ذكره، ولا أدل على ذلك من قولها: قطعت رجل أبي من ساقه، وهي كناية عن فقد السند، فلا مسند للإنسان كساقه، ثم إن هذا التضارب الشعوري والفاجعة العظيمة ألجأها لاختيار لفظ: جلل، وهو من الأضداد، فهو يُطلق على الأمر العظيم والأمر اليسير الهيّن، والسياق يرشح المعنى الأخير، ولا شك أن أي مصاب عندها أهون من فقد أخيها وانقطاع ذكر أبيها كما كانت تظن، لقد استغرق الماضي الحاضر وملأ كأس الحزن حتى فاضت ولم تكتفِ المصائب عند حد معين، بل قضت على أحلام الشاعرة ورؤاها الحالمة في بقاء الأخ سندا بعد رحيل الأب، فكانت يد القدر أقدر على تغيير معتقداتها حين قوضت الواقع وأحالته إلى رماد وملأت جوه بالكآبة والتناقض.

ويأبى الموت أن يترك أحدا إلا وتخطف روحه، فهو يتلقف الزوج والأبناء، وما تزال العصور القديمة عصور معارك وفتوح فإن للحزن دور فيها في صور الفقد وهي الطاغية على ديوان النساء حتى ليكاد يخلق اتجاها للألم والحزن والتشاؤم، ومن ذلك قول أسماء بنت أبي بكر في رثاء زوجها الزبير بن العوام حين قتله عمرو بن حرموز المجاشعي غدرا[(3)]:

غـــدرَ ابـــن حرمـــوز بفـــارس بُهمـــةٍ ** يـــوم اللقـــاء وكـــان غيـــر معـــرّدِ

يـــا عَمـــرو لـــو نبَّهتـــه لوجدتـــه ** لا طائشـــا رعـــش الجنـــان ولا اليـــدِ

(1) ديوان أشعار النساء: 6

(2) نفسه: 254

(3) ديوان أشعار النساء: 17

ثكلتـــــك أمُّـــــك إن قتلـــــت لَمُســـــلمًا ** حلّـــــت عليـــــك عقوبـــــة المتعمِّـــــدِ

صدَّرت الشاعرة أبياتها بالفعل (غدر) فاختصرت عظم المصيبة واللوعة والحسرة، فالمغدور فارس بُهمةٍ، وهو الذي يستبهم مأتاه على أقرانه غير معرّد، أي ليس فارًّا أو هاربا، فمن كانت هذه صفته فكيف يؤخذ غدرا، وقد نادت القاتل نداءً صريحا أردفته بقولها: (لو نبهته) و "من الثابت عند النحاة أن أداة الشرط هي الأداة التي تقوم بوظيفة التعليق المعنوي والزمني معًا بين الشرط والجواب، وإن فعل الشرط هو المقدمة للجواب والعلة فيه، وإن الجواب هو النتيجة الضرورية له والمعلول الحتمي الذي لا بد منه"[(1)]، فقولها (لو) على ما أنتجته للنص على مستوى اللغة والقواعد تكشف عن هذه الحسرة التي تعتصر فؤاد الشاعرة من جهة، وتظهر معنى خفيا يدل على جبن الغادر وخوفه من مواجهة المغدور من جهة أخرى، فالغادر سلب منها من لم يكن ليرتعد قلبه خوفا أو ترتجف يده لكن السيف سبق العذل، فما وجدت سبيلا لتفريغ شحنة الألم واللوعة غير أن تدعو عليه بالموت ليلتاع قلب أمه، فما حياته بعد أن باء بإثم عظيم وهو أثم القتل العمد، وهذا من مستحدثات المعاني الإسلامية التي ما كنّا نسمع عنها في أشعار السابقين، وهي القائلة أيضا في قتل ابنها عبد الله بن الزبير[(2)]:

لـــــيس لله مَحـــــرمٌ بعـــــد قـــــومٍ ** قتلـــــوا بـــــين زمـــــزم والمقـــــامِ

قتلـــــتهم جفـــــاة عـــــلٍّ ولحـــــمٍ ** وصـــــلا وحميـــــرٍ وجُـــــذامِ

وعند ملاحظة النص نجد أن (الميم) قد تكرر كثيرا ومن المعلوم أن صوت الميم ينقطع عند الشفتين ومخرجه هو بانطباق الشفتين من الخارج فكأن الهمّ والأسى في قلبها مستحوذ عليها ما تلبث أن تبثه حتى تلجمه، فماذا بعد أن قتلوا بين زمزم والمقام فهيمن على النص هيمنة عددية وموقعية وسمعية تتناسب مع هيمنة الحزن على مشاعرها المكبوتة التي لا تُبث.

قد أشرتُ إلى أن ظاهرة الحزن طغت على أشعار النساء فلم تفوّت الشواعر فرصة للبكاء والحزن والأسى في مجموع غريب من أسباب الحزن لديهن، فهذه ابنة سعد بن أبي وقاص قالت في رثاء نفسها، وقد أدركها الموت في الطريق وهي غريبة وحيدة[(3)]:

تـــذكرتُ مـــن يبـــكِ علـــيَّ فلـــم أجـــدْ ** مـــن النـــاس إلا أعبـــدي وولائـــدي

فهذا موقف من حق الشاعرة أن تحتفظ به إذ جمع بين حشد من المشاعر مرتبطا بالخوف والقلق والوحدة والغربة، فالغربة كانت منفذا للتعبير قد تزامن مع الموت حين قالت الشاعرة نائلة بنت الفراصفة[(4)]:

قضـــى الله حقـــا أن تمـــوتي غريبـــة ** بيثـــربَ لا تلقـــين أمًّـــا ولا أبـــا

[(1)] التراكيب الإسنادية (الجمل الظرفية الوصفية- الشرطية): د. علي أبو المكارم، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، 2006: 186

[(2)] ديوان أشعار النساء: 19

[(3)] نفسه: 256

[(4)] نفسه: 215

ومن القصص التي يرويها الجاحظ قصة ميسون بنت بجدل الكلبية لما تزوجها معاوية، إذ نقلت من البادية إلى الشام وكانت سيدة بارعة الجمال عفيفة ورعة ذكية، فأعجب بها معاوية وهيأ لها قصرا زين بأنواع الزخارف والأواني الفضية والذهبية، ونقل إليه من الديباج الرومي الملون وأسكنها مع وصائف يقمن على خدمتها، فكانت تنظر إلى جمال الطبيعة، ثم تتذكر أحبابها وأهلها في البادية فتحنُّ إليهم وتتشوق لمرابع الصِّبا فتبكي وتتنفس الصعداء وتتمنى العودة إلى البساطة والفقر وسط الأهل والقربى، وذات مرة تذكرت أهلها وحنّت إلى موطنها فقرأت شعرها[(1)]:

لبيـــــتٌ تخفـــــق الأرواح فيـــــه ** أحـــبُّ إلـــيَّ مـــن قصـــر منيـــفِ

وأصـــــواتُ الريـــــاحِ بكـــــل فـــــجٍّ ** أحـــبُّ إلـــيَّ مـــن نقـــر الـــدفوفِ

ولـــــبس عبـــــاءة وتقـــــرُّ عينـــــي ** أحـــبُّ إلـــي مـــن لـــبس الشـــفوفِ

وخـــرق مـــن بنـــي عمِّـــي نحيـــف ** أحـــبُّ إلـــيَّ مـــن علـــجٍ عليـــفِ

وأكـــل كســـيرة فـــي ظـــل بيتـــي ** أحـــبُّ إلـــيَّ مـــن أكـــل الرغيـــفِ

خشـــونة عيشـــتي فـــي البـــدوِ أشـــهى ** إلـــى نفســـي مـــن العـــيش الظريـــفِ

فمـــا أبغـــي ســـوى وطنـــي بـــديلا ** فحســـبي ذاك مـــن وطـــن شـــريفِ

فسمعها معاوية فغضب فطلقها وقال كنتِ فبنتِ، فقالت: لا والله ما سُررنا إذ كنا ولا أسفنا إذ بِنّا"[(2)]، وليس ببعيد عنها شعر ميسون في الغربة والحنين، فقد كانت تحمل سمة الرقة، وهو باب افتتحته قبلها نائلة بنت الفراقصة للتعبير عن الحنين للأوطان[(3)].

وقالت الشاعرة خولة بنت الأزور:

جـــلَّ المصـــابُ وزاد الويـــل والحـــربُ ** وكـــان دمـــعٌ مـــن الأجفـــانِ ينســـكبُ

مـــا دامـــت الأرض ممـــا قـــد بليـــت بـــه ** حتـــى توهمـــتُ أن الأرض تنقلـــبُ

وهذه هي المرة الأولى التي نجد فيها شاعرة تطرق أبواب شعر الأسر والسجون مغتربة ومتأسية على فقدِ أخيها فقالت:

لهفـــي علـــى بطـــلٍ قـــد كـــان عـــدّتنا ** فيـــه العفـــافُ ومنـــهُ الـــدينُ والأدبُ

قـــد كـــان ناصـــرنا فـــي وقـــتِ شـــدتنا ** أعنـــي ضـــرارَ الـــذي للحـــرب ينتـــدبُ

---

(1) ديوان أشعار النساء: 206

(2) الحيوان، أبو عثمان بحر الجاحظ (255ه)، تحقيق: عبد السلام هارون، ط2، مصر، 1958: 1/ 177

(3) ينظر: ديوان أشعار النساء: 205

ومن عادة القدماء "أن يضربوا الأمثال في المراثي بالملوك الأغرة والأمم السالفة"[(1)]، أما ما وجدناه في مرثيات الشواعر الإسلامية فإنه يعكس عمق التأثر بالدين ولا أدل من قول خولة (ومنه الدين والأدبُ)

وهكذا وجدنا أن الأشعار الحزينة كثيرة عند الشواعر الإسلاميات لأن؛ "النساء أشجى الناس قلوبا عند المصيبة وأشدهم جزعا على هالك، لما ركب الله عزَّ وجل في طبعهن من الخور وضعف العزيمة"[(2)]، ووجدنا أن أشعارهن حملت إلينا كمية من الشجن والأسى مما تتفطر له القلوب وتنهمر منه الدموع رغم عدم تعدد البواعث لديهن، فما وجدناهن يتحسرن على الشباب كعادة الشعراء في مقدمات قصائدهم التي تمتاز بالنشيج المتردد حزنا على شبابهم الراحل، وتألما من المشيب والشيخوخة وتحسرا على الذات من ترديد شكواهم من الزمن وانقلاباته على الناس[(3)]؛ وذلك لطبيعة المرأة الرافضة لإظهار الكبر، والإصرار على ديمومة الجمال والألق.

ولا شك أن الحب أحد البواعث التي تدعو للحزن ولا سيما إذا ما كانت عواقب الحب فراقا وهجرا وقطيعة، وتبعا للأعراف والتقاليد والطبيعة الأخلاقية التي تحكم الحديث عن الحب، فإن ذلك مدعاة إلى أن يكون هذا الباعث شبه مفقود، غير أنه ليس بمعدوم، فقد قالت هند الجهنية:

تمــرُّ ببــالي لــيسَ تعلــمُ مــا الــذي ** أعــالج مــن شــوقٍ إليــكَ ومــن جهــدِ

ولما كان العربي بطبيعة الحال هو صاحب القوامة وصد الدفاع الأول عن المرأة، فإن ذلك أفقدنا باعثي الظلم والفقر، فما وجدنا في أشعارهن حزنا لسببهما

ومن المعاني المستجدة في الحزنِ التألمُ على إضاعة فرض الصلاة، فهذه الشاعرة عثامة أم بلال زوجة أبي الدرداء الصحابي رضي الله عنهما تألمت وأحست بالمرارة حين علمت أن وقت الصلاة قد دخل ولم تدرِ بذلك لفقد بصرها فقالت[(4)]:

عثــــامُ مالــــكَ لاهيــــة ** حلّــــتْ بــــدارك داهيــــة

ابكــــي الصــــلاة لوقتهــــا ** إن كنــــتِ يومــــا باكيــــة

وابكــــي القــــرآن إذا تُلــــي ** قــــد كنــــت يومــــا تاليــــة

تتلينــــــه بتفكــــــرٍ ** ودمــــوع عينــــك جاريــــة

فــــاليوم لا تتلينــــه ** إلا وعنــــدك تاليــــة

لهفــــي عليــــك صــــبابة ** مــــا عشــــتُ طــــول حياتيــــه

---

(1) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لأبي علي الحسن بن رشيق، تحقيق: د. عبد الميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، 2007م: 2/ 169

(2) العمدة: 2/ 171

(3) ينظر: بنية القصيدة العربية حتى نهاية العصر الأموي: د. وهب روميّة، دار سعد الدين، دمشق، 1997: 113

(4) ديوان أشعار النساء: 142

فهي تجمع بين التحسر على البصر التي كانت تنتفع به بقراءة القرآن وبين فوات وقت الصلاة دون أن يكون البكاء على الصحة المفقودة لذاتها، وهو من المعاني التي وظفتها الشاعرة وهي تعبر عن أساها.

المبحث الثاني: مظاهر الحزن

تتباين ردود أفعال الذوات المختلفة تجاه المؤثر النفسي الواحد لذا نجد أن آثار الحزن قد تعددت وتنوعت بين ما تظهر ضعف النفس البشرية وانكسارها أمام المصائب والأقدار وبين ما يظهر التجلد والتجمل برداء الصبر فيبث أساه بصورة الزاهد الحكيم، ولعل أول ما يطالعنا وأكثر ما يبدو من مظاهر الحزن وأثره هو البكاء.

فقد كان البكاء بمسماه وأفعاله وما يستدعيه ذا حضور كبير في النصوص عند الشواعر، وهو السمة الأبرز لديهن في إظهار لوعتهن وما يقاسين من آلام، فحين قبض النبي (ﷺ) بكت أم أيمن مولاة النبي (عليه الصلاة والسلام) فقيل لها: ما يبكيك؟ فقالت: " أبكي على خبر السماء" وقالت: "إي والله لقد علمت أن رسول الله (ﷺ) سيموت ولكني إنما أبكي على الوحي إذ انقطع عنا من السماء"[(1)]، ولولا البكاء لما دار هذا الحوار الذي كشف عن مكنونات النفس وصراعها بين حبيب مفتقد ووحي منقطع.

وما يزال للبكاء حضورا ما دام المقام مقام رثاء، فهذه عاتكة بن عبد المطلب (رضي الله عنها) ترثي ابن أخيها فتقول[(2)]:

عينـيَّ جـودا طـوال الـدهر وانهمـرا ** سـكبا وسـحّا بـدمعٍ غيـر تعـذير

يـا عـينُ فاسـحنفري بالـدمع واحتفلـي ** حتـى الممـات بسـحل غيـر منـزورِ

يـا عـينُ فـانهملي بالـدمع واجتهـدي ** للمصـطفى دون خلـق الله بـالنور

بمسـتهلٍ مـن الشـؤبوب ذي سـيلٍ ** فقـد رزئـتُ نبـي العـدل والخيـرِ

وكنـتُ مـن حـذرٍ للمـوت مشـفقة ** وللـذي خـط مـن تلـك المقـاديرِ

هذا التصدير بطلب استمرارية البكاء منسجم مع الحركة النفسية الداخلية الهائجة، فلا يناسب هذا المصاب إلا دمع مستمر في الزمن غزير في الكم، فالدوال (جودا، انهمرا، سكبا، سحّا، غير تعذير، اسحنفري، سحل، غير منزور، انهملي، اجتهدي، شؤبوب، ذي سيل) كلها حشد دلالي لدوال تفيد الكثيرة والانهمار والغزارة في الدموع بتكرار المنادى (العين) حيث حذفت الأداة في البيت الاول كنوع من الاستغاثة على سبيل التفجع، فلا يمكن إخفاء هذه العاطفة الملتاعة بفقد خير البرايا، على ما في النص من تكثيف الدوال لإفادة المعنى، ونجد أن التكرار طاغٍ أيضا فالمنادى المضاف إلى ياء المتكلم (عيني) هو نفسه المنادى النكرة المقصودة (عين)، وتكرار صيغة الأمر (جودا، وانهمرا، واسحنفري، واحتفلي، واجتهدي) أيضا يؤدي إلى تأكيد الحزن وشدة البكاء، ولا سيما أن لفظة (الدمع) قد تكررت أيضا على مدار الأبيات الثلاث الأولى

(1) ديوان أشعار النساء: 28

(2) نفسه: 124

بالتزامن مع آلته وهي العين، لتختم هذه المقطوعة بالتصريح من حذرها من هذا القدر الذي لا يغني معه الحذر.

إنَّ الحزن عاطفة، و"العاطفة تنظيم وجداني ثابت نسبيا ومركب من عدة استعدادات انفعالية تدور حول موضوع معين، وقد يكون شيئا او شخصا أو فكرة"[(1)]، وقد تجتمع كل هذه الحالات فيكون وقتئذ الألم أدهى وأقسى، لذا سيطالعنا البكاء في أغلب النصوص الشعرية اللاحقة متصدرا مظاهر الحزن مضافا إليه مظاهر أخرى.

الأرق وطول الليل:

من متلازمات الحزن ومظاهره جفوة المنام والإحساس بثقل الزمن وتباطئه فأينما كان الهم كان الليل طويلا فالزمن يدخل عالم النص الشعري ولا سيما في حالات الحزن ليمثل أحد مرتكزات البناء الشعرية ولما كانت "المقدمة تمثل الجزء الأهم الذي تقع عليه نظرة النقاد والباحثين والمهتمين بالحركة الشعرية، لذا نجد الشعراء اهتموا بمقدماتهم؛ لأنها تمثل لديهم المدخل الرئيس لقصائدهم، فضلا عن إنها الجزء الذي يشد انتباه المتلقي ويعمق إحساسه بها (حزنا وفرحا) تبعا لطبيعة الظروف التي تصورها تلك المقدمات"[(2)]، ولما كانت هذه هي طبيعة المقدمة وجدنا الشواعر في أغلب أشعارهن يلجأن إلى ذكر الزمن بطول الليل ومجافاة النوم والأرق لبيان الحزن، والحقيقة أن معظم أشعار النساء في غرض الحزن جاء عفويا دون هذه التبني لهذه الأهداف التي أشرنا إليها، فبين الزمن والحزن علاقة وطيدة كلما زاد الحزن ثقل الزمن، قالت خولة بنت الأزور قصيدة تُعد من المراثي المبكيات[(3)]

أبعـــد أخـــي يلـــذ الغمـــض عينـــي ** فكيـــف ينـــام مقـــروح الجفـــونِ

ســـأبكي مـــا حييـــت علـــى شـــقيقٍ ** أعـــزَّ علـــيَّ مـــن عينـــي اليمـــينِ

فلـــو أنـــي لحقـــتُ بـــه قتـــيلا ** لهـــان علـــيَّ إذ هـــو هـــونِ

وإنـــي إن يقـــال مضـــى ضـــرارٌ ** لباكيـــةٍ بمنســـجمٍ هتـــونِ

وقـــالوا كـــم بكـــاؤك؟ قلـــت مهـــلا ** أمـــا أبكـــي وقـــد قطعـــوا وتينـــي

يبدأ النص بسؤال إنكاري يدل على نفي لذة النوم وغمض العين، بل تعجب ممن اشتد به الحزن وتقرحت أجفانه من البكاء كيف ينام!، وهذا الترابط بين جفوة النوم وشدة الألم النفسي غير متوقف؛ لأنها ستبكي عليه بكاء غير منقطع بدموع هتون أي مصبوب صبا ولا سيما أن الجفن لا يتقرح إلا من بكاء مستمر، ولما تضافر الحزن في قلبها بسهر وبكاء وتمني موت طُلب منها أن تهدأ قليلا وتكف عن البكاء فتجيب قائلة: أما أبكي وقد قطعوا عِرق قلبي، فالوتين عرق القلب الذي يجري منه الدم إلى العروق، وهي تكني به هنا عن الحياة.

[(1)] أصول علم النفس: د. أحمد عزت راجح، المكتب المصري الحديث، الاسكندرية، طبعة فريدة ومنقحة، 1978: 145

[(2)] الفضاء الشعري عند الشعراء اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي: د. حسين علي الدخيلي، دار الحامد، عمان، ط1، 2010: 244

[(3)] ديوان أشعار النساء: 52

وقد يتحول الهم لكائن مبهم ذي سلطة وقسوة حيث تصوره الشاعرة أمينة الأنصارية كسلطة عُليا عليها وهي حينذاك تنفذ أمره دون تردد فتقول[(1)]:

منـــــع اليـــــوم أن أذوق رقـــــادا ** مالِـــك إذ مضـــى وكـــان عِمـــادا

يـــا أبـــا الهيـــثم بـــن تيهـــان إنـــي ** صـــرتُ للهـــمِ معـــدنا ووســـادا

لقد تجسد الهم في هذه الصورة بطريقة إبداعية، حيث تحولت هي من كائن له احتياجاته في النوم والراحة إلى وسادة ومعدن للهم، ولم يكن ذلك بحاصل لولا عظم المصاب وفقد العماد، وهو ما يدعو الشاعرة إلى نداء الحاضر باسمه تفجعا وحسرة.

ولطالما خلّف الحزن سهرا وليلا طويلا وتحسّرا وألما، وما كان لعاتكة بنت زيد إلا تبدأ بالليل لتنتهي بالتسهيد في قولها[(2)]:

يـــا ليلـــةَ حبســـتْ علـــيَّ نجومهـــا ** فســـهرتُها والشـــامتونَ هجـــودُ

قـــد كـــان يُســـهرني حـــذارك مـــرّة ** فـــاليوم حُـــقَّ لعينـــيَ التســـهيدُ

هكذا كان طول الليل متناغما مع الحزن الذي يتعاضد معه الإحساس بالوحدة، وذلك أننا نشهد تغايرا في الإحساس بالزمن الطويل الممتد بامتداد الحزن والضجر، وبالمقابل نشهد له تقلصا في أوقات السعادة والرضا، وهذا ما أشار إليه (هانزمير) عندما رأى أنَّ الساعة قد تصبح دقيقة، وأن الدقيقة قد تصبح ساعة متى ما أقام الزمن في عنصر الروح العجيب[(3)]

الشكوى:

كثير من أشعار الحزن جاءت مغلفة بالشكوى من خلال كلمات معبرة صورة مؤثرة، فهذه أروى بنت عبد المطلب عمّة الرسول (ﷺ) تمزج بين حزنها وشكواها مما جار عليها الزمان، فالخوف ما زال يحيط بها مترقبة الأيام القادمة فتقول[(4)]:

لعمـــرك مـــا أبكـــي النبـــي لموتـــه ** ولكـــن لهـــرجٍ كـــان بعـــدك آتيـــا

كـــأن علـــى قلبـــي لـــذكر محمد ** ومـــا خفـــت مـــن بعـــد النبـــيِ المكاويـــا

أفـــاطم صـــلى الله رب محمـــدٍ ** علـــى جـــدثٍ أمســـى بيثـــربَ ثاويـــا

إنها تشكو من جرح الفقد، تشكو من هذه النار التي ما تزال تكوي القلب، فتقدم الحزن ممتزجا بالشكوى والخوف والرجاء والمواساة في تداخل عجيب المشاعر، ومثلما كان لأروى

---

(1) نفسه: 27

(2) ديوان أشعار النساء: 116

(3) ينظر: الزمن في الأدب: هانز ميرهوف، ترجمة: د. أسعد رزوق، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، 1972: 17-20

(4) ديوان أشعار النساء: 12

أبياتا في الشكوى فمزروعة الحميرية لا تبعد عنها في هذا النوع من الشعر، فهي التي تبدأ بتلهب القلب وتنهي بخيبة أمل وعدم رجوع فتقول[(1)]:

أيـــا ولـــدي قـــد زاد قلبـــي تلهبـــا ** وقـــد أحرقـــتْ منـــي الخـــدودَ المـــدامعُ

وقـــد أضـــرمتْ نـــار المصـــيبة شُـــعلة ** وقـــد حميـــت منـــي الحشـــا والأضـــالعُ

وأســـأل عنـــك الركـــب كـــي يخبروننـــي ** بحالـــك كيمـــا تســـتكين المـــدامعُ

فلـــم يـــكُ فـــيهم مخبـــرٌ عنـــك صـــادقٌ ** ولا مـــنهمُ مـــن قـــال إنـــك راجـــعُ

صورة قاسية جدا رسمتها الشاعرة وهي تتلقى بقلبها المصدوع خبرا أسر فلذة كبدها، فهي تقف في الطريق تقابل العائدين من فتوحات الشام تسأل عنه رجاء أن تجد جوابا شافيا، فما وجدت جوابا صادقا لتضارب الأخبار، وليس هناك من خفف عنها المصاب ليعدها بعودته، فالقلب لاهب والدمع حارق، فهي صورت الحزن كإنسان يُشعل نارا في جوفها حتى احترق الحشا وحميت الضلوع.

وما تزال المشاعر عالقة بمن تحب وتشكو فراق الأحبة، ولا سيما إذا كانت الشكوى بحضرة النبي وصاحبيه، فهي دون شك شكوى لا عزاء يسكن من حدتها ولا رفقة تهون منها، ولعل أقرب مثال لذلك أن نائلة بنت الفرافصة حين فقدت زوجها ذهبت لقبر النبي محمد (عليه الصلاة والسلام) وصاحبيه (رضي الله عنهما) تشكو مقتل زوجها فتقول[(2)]:

أيـــا قبـــر النبـــي وصـــاحبيهِ ** عـــذيري إن شـــكوتُ ضـــياعَ ثـــوبي

فـــإني لا ســـبيلَ فتمنعـــوني ** ولا أيـــديكمُ فـــي منـــع حـــوبي

فهي تكني بقولها (ضياع ثوبي) عن فقد الزوج حيث قال ﷺ: "هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ"[(3)]، وهي تعلم يقينا أن لا جدوى من الشكوى فليس بأيديهم أن يمنعوا حزنها ووحشتها، وفي مناجاة القبر نوع من المواساة لنفسها وتخفيف من شدة ما تلقى، فكل حي للزوال يروحُ.

السقم ونحول الجسم وشحوبه:

لقد صورت الشواعر في أشعارهن من آثار الحزن تغيرا ظاهرا في القوة البدنية والصورة الجسمانية، فمذ كان الحزن وهو يجيد تغيير الملامح وإظهار الشحوب وقضم قوة الجسد، ومن ذلك قول عاتكة بنت زيد[(4)]:

مَـــن لـــنفسٍ عادهـــا أحزانهـــا ** ولعـــينٍ شـــفّها طـــول الســـهد

فقولها: (شفّها) أي أحزنها وأذبلها فتغيرت من بعد النضارة والبريق إلى الذبول والانطفاء. ولم تكن السيدة صفية ببعيدة عن هذا المعنى، فهي في رثاء سيدنا النبي محمد (ﷺ) تقول[(1)]:

---

(1) ديوان أشعار النساء: 199

(2) نفسه: 225

(3) سورة البقرة: 187

(4) ديوان أشعار النساء: 115

آبَ ليلـــــي علـــــيَّ بالتســـــهادِ ** وجفـــا الجنـــبُ غيـــر وطءِ الوســـادِ

واعترتنـــي الهمـــوم جِـــدّا بـــوهنٍ ** لأمـــورٍ نـــزلنَ حقـــا شـــدادِ

فالليل عندها لا يعود إلا بالسهد والسهر، وجنبها تجافيه المضاجع، وتكرار هذا الحال استلزم أن يوهنها ويضعفها، وهكذا تتشارك النساء الشواعر في التعبير عن المصاب بالنحول والسقم، ولعل زينب بنت العوام تستذكر مقتل ابن عفان فتعود بها الذاكرة إلى فقد النبي وهو ما يدعو إلى النحول والتعب وابتداء الحسرة وانطلاق العبرات فتقول((2)):

قتلـــتم حـــواريِّ النبـــي وصـــهره ** وصـــاحبهِ فاستبشـــروا بجحـــيمِ

وقـــد هـــدّني قتـــلُ ابـــن عفـــان قبلـــه ** وجـــادت عليـــهِ عبرتـــي بســـجومِ

فكلمة (هدني) أخذت على عاتقها رواية حال الشاعرة وما نالها من مصاب فتعاظم الحزن ينال من المرء ما ينال، وليس ببعيد عن ذاك في قول من ترثي ولديها((3)):

يـــا مَـــنْ أحـــسَّ بنـــيَّ اللـــذين همـــا ** ســـمعي وطرفـــي، فطرفـــي اليـــوم مختطـــفُ

يـــا مَـــن أحـــس بنـــيَّ اللـــذين همـــا ** مـــخَّ العظـــامِ فمخـــي اليـــوم مزدهـــفُ

فالحزن الذي ألمَّ بجسدها فخطف بصرها وأقعدها وأثر في جسدها أيما تأثير، أبى أن يغادر دون أن يؤثر على أنساقها البنائية، فالنص يتجاذبه التكرار، ففي الشطر الأول تكرار متماثل لفظا، وفي الشطر الثاني تكرار متماثل تماثلا تركيبيا، فالمصيبة متكررة لديها بفقد ولديها وهو ما دعاها لاختيار الجملة الأسمية للتعبير عن ثبات المعنى، حتى أن المخ مزدهف والبصر مختطف.

اليأس والتشاؤم:

قد يصل الحزن إلى مرحلة أن لا يجد المحزون في الحياة ما يستحق أن يحيا لأجله فيتمنى الموت حتى يجد فيه خلاصه مما يشعر به من عظيم الأسى والأسف كما قالت فاطمة (رضي الله عنها) ((4))

فليـــتَ قبلـــك كـــان المـــوت صـــادفنا ** لمّـــا مضـــيت وحالـــت دونـــك الحُجـــبُ

إنّـــا رأينـــا بمـــا لـــم يُـــرزَ ذو شـــجنٍ ** مـــن البريـــة لا عجـــم ولا عَـــربُ

ومثل هذا قالت عمّة النبي محمد (ﷺ) صفية بنت عبد المطلب (رضي الله عنها) ((5)):

((1)) نفسه: 91

((2)) ديوان أشعار النساء: 66

((3)) نفسه: 309

((4)) نفسه: 169

((5)) ديوان أشعار النساء: 95

ليـــتَ يـــومي يكـــون قبلـــك يومـــا ** أنضـــــج القلـــب للحـــــرارةِ كيَّـــا

وهذا يشبه ما قالته مريم حين تمنت الموت قائلة ما ورد في القرآن الكريم: "يا ليتني مِتُّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً"، وقد يصل بالحزن أن لا يرى النور وتلوح الكآبة لا في الوجوه فقط، وإنما كل الكون يظلم كما قالت السيدة فاطمة الزهراء[(1)]:

صُـــبَّت علـــيَّ مصـــائبٌ لـــو أنّهـــا ** صُـــبَّت علـــى الأيـــامِ صـــرنَ لياليـــا

فالأيام تحمل دلالة النهار بدلالة تحولها من كثرة الهموم والمصائب إلى ليالي، أي من الأبيض إلى الأسود ومن النور إلى الظلام "ولعل بابا من أبواب الشعر التقليدي لم يكن أكثر اتساعا أمام صدق تجربة النساء كما كان باب الرثاء الذي فتح على مصراعيه وتنوعت مجالاته واتسع فيه مجال الصدق والتعبير عن شكوى النفس وحجم الحزن الذي يعتصرها إزاء فقد عزيز بعيدا عن روح النفاق والتزلف"[(2)].

وما أقسى أن يشعر المرء بأنه يعيش بلا معنى كما اختارت أن تقول خولة بنت الأزور[(3)]

فمـــا هـــذه الأيـــام إلا معـــارة ** ومـــا نحـــن إلا مثـــل لفـــظ بـــلا معنـــى

أرى القلـب لا يختـار فـي النـاس غيـرهم ** إذا مـــا ذكـــرهم ذاكـــرُ قلبـــي المُضـــنى

فهذا الشعور البائس بتفاهة الحياة التي تسلب منها كل ما له، قيمة حتى تشعر بأن كيانها لفظ بلا معنى ووجود بلا جدوى، فالقلب بالذكر معذب ولا سبيل للنسيان، فصدق العاطفة ألقى بظلاله على اختياراتها اللغوية فجاءت صادقة معبرة دونما تكلف حتى طغى الإحساس عليها.

الذهول:

رفض القرآن الكريم الحزن للمرأة في أكثر من موضع ففي قوله للسيدة مريم العذراء يتضح ذلك، وفي موقف أم موسى عليه السلام أيضا، وقد جاء الإسلام بالتعاليم الجديدة في النهي عن الجزع ولطم الخدود وشق الجيوب ولبس السواد، ولكن قد تذهل الشاعرة العربية المسلمة في لحظة الموت عن كل ذلك لتعود إلى ما تعارفت عليه من التقاليد ودعت إليه النفس، فهذه امرأة من المسلمين تبكي عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت[(4)]:

ســـــــيبكيك نســـــــاءُ الحـــــــيِّ ** يبكـــــــــــينَ شـــــــــــجيَّاتِ

ويخمشـــــــنَ وجوهـــــــا كالـــــــدَّ ** نـــــــــــــانيرِ نقيَّـــــــــــاتِ

ويلبســـــــنَ ثيـــــــابَ الحـــــــزْ ** ـــــــــنِ بعـــــــدَ القصَّـــــــبيَّاتِ

---

(1) نفسه: 176

(2) الشعر النسائي في أدبنا القديم: د. مي يوسف خليف، مكتبة غريب، 1991: 94

(3) ديوان أشعار النساء: 54

(4) ديوان أشعار النساء: 320

ففي هذه الأبيات ذكرت لنا الشاعرة عدة آثار ومظاهر، فالبكاء حال النساء وخمش الوجوه ولبس ثياب الحزن (الحداد) وهو ما نهين عنه على غير زوج، وقد "لا يدرك الإنسان بوعيه وشعوره ما يفعله من حالات الصدمة، وفيهما يقوم بحركات لا معنى لها ولا مغزى حتى ينتهي من صدمته ويعود إلى وعيه وشعوره ليدرك حقيقة ما دفع له"[(1)]، وهذه نعُم المخزومية تقول صراحة أنها جزعت فقالت ما لا يفترض أن يقال، إذ وصفت زوجها بالطاعم الكاسي[(2)]:

أقــول لمَّــا أتــى النــاعي لــه جزعــا ** أودى الجــواد وأودى الطــاعم الكاســي

فالله هو الطاعم وهو الكاسي، ولكن لهول المصاب ذهلت الشاعرة فقالت ما لا يقال جزعا.

الشيب:

من المفارقة أننا لم نجد للشيب نصيبا في البواعث، غير أننا وجدناه أثرا من الآثار الواضحة للحزن كما صرحت بذلك النساء فصورن بياض مفارقهن وتغير سواد شعرهن من عظيم حزنهن وفرط الأسى، كما نجد ذلك في كثير من النصوص التي عبرت فيها الشواعر عن ذهاب شبابهن وتغير لون شعرهن لأسباب كثيرة كفراق حبيب أو أخ أو ما شابه، ولعل أقرب ما يكون في تصوير ذلك قول امرأة حنظلة بن الربيع[(3)]:

إنْ تســألِيني اليــوم مــا شــفْني ** أخبــرْكِ قــولا لــيسِ بالكــاذبِ

إنَّ ســؤاد الــرأسِ أودى بــه ** وجــدي علــى حنظلــة الكاتــبِ

فمما تتنكر له المرأة الاعتراف بنهاية الشباب، فهي تسعى أبدا لتبدو أصغر عمرا ما استطاعت، لكن الحزن غيّر عندها هذه العادة فاعترفت بالشيب مودعة سره للأسى والحزن واللوعة، فهي تقول أيضا[(4)]:

أرقــتُ قبــتَّ ليلــي كالســليبِ ** لوجــدٍ فــي الجــوانحِ ذي دبيــبِ

فشــيّبني ومــا شــابت لــداتي ** فأمســى الــرأسُ منــي كالعســيبِ

حزنٌ أخلفها أرقا فباتت كمن تعرَّض له قطاعُ طرق فسلبوا منه ما يملك، وهذا الحزن شيّب الرأس حتى أصبح كجريد النخل المتيبس، وما شيبها هذا لأنها كبيرة عمرٍ فأقرانها لم يشبْنَ بعد، إلا إنه الحزن وأثره الظاهر عليها.

التضرع والدعاء:

مما لا شك فيه أن تحولا موضوعيا قد شهدته أشعار الحزن في الشعر الإسلامي، هذا التحول ارتبط بتحديد القيم الفكرية والاجتماعية التي تسربت إلى الشعر لتصبَّ في مناصرة

---

(1) ظاهرة الحزن في شعر نازك الملائكة: 137

(2) ديوان أشعار النساء: 218

(3) ديوان أشعار النساء: 306

(4) نفسه: 88

العقيدة واستظهار لمبادئ الإسلام وقيمة مضامينه[(1)] وهذا الأمر مما يظهر جليا في أشعار النساء، فنجد إحداهن تصبّر نفسها وتصبّر أخواتها ولا تنفك تذكر حالهم وفوزهم بالجنة، ورضى الله كما قالت عاتكة بنت عبد المطلب بن هاشم في رثاء النبي محمد (ﷺ) [(2)]:

فعليـــكَ رحمـــة ربنـــا وســـلامهُ ** يـــا ذا الفواضـــل والنـــدى والســـؤددِ

هـــلّا فـــداكَ المـــوت كـــل ملعَّـــنٍ ** شـــكسٌ خلائقـــه لئـــيمُ المحتـــدِ

فهي تدعو للنبي (ﷺ) بالرحمة في تركيب يحمل التقرير والدعاء، فهي على يقين بحسن مآله وهو ما يصبر قلبها الملتاع الذي لا يلبث أن يتمنى لو كان فدىً للرسول من يستحق الموت حقا لسوء خلقه. وهي القائلة أيضا[(3)]:

وكنـــتُ مـــن حـــذرٍ للمـــوتِ مُشـــفقةً ** وللـــذي خُـــطّ مـــن تلـــك المقـــادير

مِـن فقْـدِ أزهـر صـافي الخلـق ذي فخـر ** صـافٍ مـن العيـبِ والعاهـاتِ والـزورِ

فاذهـــبْ جميعـــا جـــزاك الله مغفـــرةً ** يـوم القيامـةِ عنـد الـنفخِ فـي الصـورِ

فنحن نرى هذا المزيج المختلط من الخوف والرجاء والحزن في عبارات سهلة تحمل نوعا من الجدّة في إدخال قيم وألفاظ ومعانٍ جديدة مستمدة من الإسلام.

ولعل هذا المعنى أكثر ما تردد في رثاء النبي (ﷺ) فمعظم من رثت النبي قد آثرت أن تختم رثاءها بالتضرع والدعاء والاستسلام لقضاء الله كقول السيدة صفية بن عبد المطلب (رضي الله عنها) [(4)]

رحمـــــة اللهِ والســـــلامُ عليـــــهِ ** وجـــزاهُ المليـــكُ حســـنَ الثـــوابِ

وقالت في نهاية قصيدة أخرى[(5)]:

رضـــيَ اللهُ عنـــهُ حيّـــا ومَيِّتـــا ** وجـــزاهُ الجنـــانَ يـــومَ الخلـــودِ

وحري بالذكر أن الشطر الأول ورد مكسورا بالديوان بتشديد لفظة: ميّتا، وأحسب أن التشديد قد وقع سهوا، والأصل فيه: مَيْتًا، وذلك أن البيت من البحر الخفيف وتفعيلاته:

فَـــاْعِلَاْتُنْ مُسْـــتَفْعِلُنْ فَـــاْعِلَاْتُنْ ** فَـــاْعِلَاْتُنْ مُسْـــتَفْعِلُنْ فَـــاْعِلَاْتُنْ

فيكون الصدر من البيت بحسب قاعدة ما يُلفظ يكُتب في التقطيع العروضي بهذه الشاكلة: رَضِيَ لُلَاْ – هُ عَنْهُ حَيْ – يَنْ ومَيْتَنْ، فيكون عند ذلك تقطيعه: **فَعِلَاْتُنْ – مُتَفْعِلُنْ – فَأْعِلَاْتُنْ**، ولا

[(1)] ينظر: الشيب والهرم في الشعر العربي في العصرين الإسلامي والأموي: هدى هادي عباس، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1994: 173

[(2)] ديوان أشعار النساء: 123

[(3)] نفسه: 125

[(4)] نفسه: 88

[(5)] ديوان أشعار النساء: 91

يصح حينذاك قولنا: ميّتًا، فتكون التفعيلة الأخيرة حاملة لأحرف زائدة عن حروف تفعيلات البحر، ولعل وجها آخرا يؤيد هذا القول من ناحية المعنى، فمعلوم أن لفظة ميّت: تطلق على الحي والمي على السواء، وقد قال الله تعالى مخاطبا للرسول عليه الصلاة والسلام: إنك ميّتٌ، وهو ما زال على قيد الحياة، بينما تطلق لفظة مَيْت، لمن وافته المنية وغادر الحياة.

وبعيدا عن العروض وأبحر الشعر فإن الشاعرة تكرر أيضا قضية التضرع في ختام قصيدة أخرى فتقول[(1)]:

عــاشَ مــا عــاشَ فــي البريــةِ بَــرًّا ** ولقــد كــانَ مــن هبــةِ المرتــادِ

ثــمَّ ولّــى عنّــا فقيــدا حميــدا ** فجــزاهُ الجنــانَ ربُّ العبــادِ

وهذه الخاتمة تكررت في معظم أشعار النساء التي رثت فيها النبي (ﷺ) وشهداء المعارك، لتكون هذه الكلمات بلسما يخفف وقع المصاب ويبرّد على القلوب حرَّ الفقد وشدة الألم، كل ذلك الأمر جعل من أم سنان بنت جشمية المذحجية تقول في رثاء سيدنا علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)[(2)]:

فاذهــب عليــك صــلاة ربّــك مــا دعــتْ ** فــوقَ الغصــون حمامــة قمريّــا

قــد كنــتَ بعــد محمــدٍ خلفــا لنــا ** أولــى إليــك بنــا فكنــتَ وفيّــا

فــاليوم لا خَلــف نأمّــل بعــده ** هيهــات نمــدحُ بعــده إنســيّا

وقد اختارت أن تُعاد عليه الصلوات كلما دعت الحمامة، فالحزن أشركها في هذا النص لما هو معروف من صوت الحمامة الذي يشبه البكاء، فأينما تولي الشاعرة تجد الحزن أمامها رغم الدعاء والتضرع.

وتقول سيدتنا فاطمة (رضي الله عنها) [(3)]

وإذا بكــتْ قمريّــة شــجنًا لهــا ** لــيلا علــى غصــنٍ بكيــتُ صــباحي

فــالله صــبّرني علــى مــا حــلَّ بــي ** مــات النبــي، قــد انطفــى مصــباحي

فإذا اشتد المصاب وعزَّ الصبر آوى الإنسان إلى الركن الشديد، والله وحده من بيده تخفيف الألم.

الصبر والتجلّد:

يبقى الصبر والتجلد فضيلة المؤمن يثاب عليهما وتحمل عن عاتقه مرارة الحزن، فالله وعد وبشّر ولن يخلف الله وعده فقال ﷻ: "وبَشِّرِ الصَّابِرِيْنَ"[(4)]، فكان من البديهي أن تجد هذا المظهر يتكرر ليثبت صدق العقيدة وتغلغل الدين في نفوس المسلمات الشواعر رغم احتياجها

---

(1) نفسه: 91، وينظر: 92، 96، 97

(2) نفسه: 392

(3) ديوان أشعار النساء: 171

(4) سورة البقرة: 155

الكبير للتعبير عن قسوة الألم الذي ألمَّ بهن فكان الصبر أسبق إلى أشعارهن، ومن ذلك قول الكاملة وهي جارية على عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه[(1)]:

أقـول لنفسـي وهـي فـي عـسٍ كُربـة * أقِلّـي فقـد بـان الحبيـب وأكثـري
*

إذا لـم يكـن للأمـر عنـديَ حيلـة * ولـم تَجِـدِيْ شـيئا سـوى الصبر فاصبرِي
*

وكأنها تضع نفسها في موازنة (أقلي، وأكثري) (فاصبري أو لا تصبري) ليكون اختيارها للصبر عن قناعة، إذ لا فائدة من عدم الصبر والجزع.

وتقول السيدة فاطمة رضي الله عنها وهي أشجى من ترثي مصابا[(2)]:

تـذكرتُ لمّـا فـرَّق المـوتُ بيننـا ** فعزَّيْـتُ نفسـي بـالنبي محمَّـدِ

فقلـتُ لهـا إنّ الممـاتَ سـبيلنا ** ومـن لـم يمـتْ فـي يومـهِ مـاتَ فـي غـدِ

ولا أجانب الصواب إن قلت أن هذه العبارة أصدق عبارة تصبّر صادفتني في أشعار النساء، إذ جمعت بين قوة الإيمان وقوة المصاب وجزالة العبارة وعمق التجربة وصدق الحديث.

الموت كمدا:

إذا لم يجد المرء في نفسه صبرا ولا إلى الصبر سبيلا وانقطعت عن التعبير نفسه ولم يجد الحزن فيه للظهور زاوية يخرج منها، كان الموت أقرب ما يكون إليه، فهذه ريَّا بنت الغطريق السلمية أحبها فتى يدعى عتبة بن الحباب بن المنذر الانصاري وخطبها إلى أبيها وعلم الأب بافتضاح أمر الفتى وحبه لابنته، إزاء احترام الأنصار وعلو مكانتهم وقد قدموا إليه في ضيافته فلم يستطع أن يردهم رغم غضبه فطلب مهرا معجزا، إلا أن عتبة استجاب لكل مطالب الأب فأقيم الاحتفال وخرج العروسان برواحلهما متجهين إلى المدينة المنورة من السماوة في العراق، فإذا بغارة لبني سلم أغارت على عتبة وقتلته فأردته في الحال، وبكت ريّا ورمت بنفسها من الهودج فأنشدت شعرا وقضت نحبها إلى جانبه، ودُفنا في المدينة[(3)]، ولم يصل إلينا من شعر ريّا إلا أبياتها في رثاء عتبة بن الحباب الأنصاري، فهي تقول[(4)]

تصـبرتُ لا أنـي صـبرتُ وإنمـا ** أعلـلُ نفسـي أنهـا بـكَ لاحقـة

ولـو أنصـفتْ روحـي لكانـت إلـى الـردى ** أمامـك مـن دون البريـةِ سـابقة

فمـا أحـدٌ بعـدي وبعـدك منصـفٌ ** خلـيلا ولا نفـسٌ لـنفسٍ موافقـة

فكلماتها جزلة رقيقة مؤلمة قد استطاعت من خلالها أن تعبر عن حزنها العميق الذي آثر أن لا يترك أثر ظاهرا جليا، فأوقف النبض ووسد الجسد التراب.

[(1)] ديوان أشعار النساء: 187

[(2)] ديوان أشعار النساء: 171

[(3)] ينظر: ديوان أشعار النساء: 64

[(4)] نفسه: 64

وبعد هذا الاستعراض الطويل لمظاهر الحزن في شعر النساء نجد أن التميز في العرض لديهن شمل البواعث والمظاهر والتعبير عن خلجات النفس باللفظ الصريح حينا وبالتلميح حينا آخر، والحقيقة أن تتبع الحزن في أشعار النساء كشف عن مركزية الحزن في أشعارهن، وكان الباعث الأشد ظهورا لقول الشعر والدافع الأسمى لديهن، وإن اختيار بعض النصوص كما هو واضح عبارة عن سلسلة يشد بعضها برقاب بعض، فلا يمكن القول بأن دراسة النص الأدبي قد ارتكزت على نمط معين من الاختيار؛ وذلك لأن دراسة النص هو للتعرف على آليات التعبير والاختيار التي تنضوي على نفعية المعنى.

الخاتمة:

من خلال ما سبق تبين لنا الثراء الدلالي لمفردات الحزن مما أعطى مساحة واسعة للتعامل مع المفردات وفق ما يتناسب مع حاجة الوزن الشعري والمعنى العام والخاص للحزن فضلا عن تعدد الاسباب و المثيرات للحزن في أشعار النساء في صدر الإسلام مما كان متعارفا عليه ومما استجدّ من اسباب كضياع وقت الصلاة، و لم نجد لبعض الاسباب ذكرا مما كان متعارفا عليه في اشعار السابقين مثل الكبر والظلم والفقر، بينما وجدنا في المظاهر تنوعا كبيرا وهو ما يحسب للشواعر في تمكنهن من استثمار هذه المظاهر لابراز مكنونات النفس بطرق متعددة، وفي كل ذلك كانت اللغة سهلة جزلة مفعمة بالإحساس بعيدة عن التعقيد الصوري والصوتي إلا من بعض الألفاظ هنا وهناك وهو ما يتناسب وطبيعة اللغة في ذلك العصر.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- أصول علم النفس: د. أحمد عزت راجح، المكتب المصري الحديث، الاسكندرية، طبعة مزيدة ومنقحة، 1978.
- بنية القصيدة العربية حتى نهاية العصر الأموي: د. وهب روميّة، دار سعد الدين، دمشق، 1997.
- البيان والتبيين: أبو عمر بن بحر الجاحظ (255ه) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط5، 1989.
- تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان، نقله إلى العربية د. عبد الحليم النجار، ط3، دار المعارف، مصر: 1959.
- تحليل الشخصية: دون لوري، ترجمة حسين حمزة، دار كنوز المعرفة، ط1، 2014.
- التراكيب الاسنادية (الجمل الظرفية الوصفية الشرطية): د. علي أبو المكارم، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، 2006.
- التفسير النفسي للأدب: د. عز الدين اسماعيل، دار المعارف

- الحيوان: أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ (255ه)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط3، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1958.
- ديوان أشعار النساء في صدر الإسلام: دراسة وجمع وتحقيق ليلى محمد ناظم الحيالي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية: 1989.
- ديوان الخنساء، دار الأندلس، بيروت لبنان، د.ت.
- الزمن في الأدب: هانزمير هوف، ترجمة: د. أسعد رزوق، مؤسسة فرانكليت للطباعة والنشر، القاهرة، 1972.
- الشعر الأموي في مقاييس النقاد العرب القدامى حتى نهاية القرن الخامس الهجري: نغم هادي جويد العامري، رسالة ماجستير، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد 1995.
- الشعر النسائي في أدبنا القديم: د. مي يوسف خليف، مكتبة غريب، القاهرة، 1991.
- الشعر والشعراء: ابن قتيبة الدينوري أبو محمد عبد الله بن مسلم (276ه)، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، 1996
- الشعراء نقادا، دراسات في الأدب الإسلامي والأموي: د. عبد الحليم المطلبي، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، بغداد، 1986
- الشيب والهرم في الشعر العربي بين العصرين الإسلامي والاموي: هدى هادي عباس، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1994
- ظاهرة الحزن في شعر نازك الملائكة أسبابها وقضاياها المعنوية والفنية: د. سالم أحمد الحمداني، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الموصل، 1980.
- علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي: أ. د. هادي نهر، عالم الكتب الحديث، عمان الأردن، 2008
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده الأدبي: علي الحسن بن رشيق، تحقيق: د. عبد الحميد الهنداوي، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، 2007.
- الفروق اللغوية: الحسن بن عبد الله العسكري، علق عليه ووضع حواشيه: محمد باسل العيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط4، 2006.
- الفضاء الشعري عند الشعراء اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي: د. حسين علي الدخيلي، دار الحامد، عمّان، ط1، 2010
- لسان العرب: ابن منظور، ط3، بيروت، دار صادر، 1992

- معجم الفروق الدلالية المتقاربة في القرآن الكريم لبيان الملامح الفارقة بين الألفاظ متقاربة المعنى والصيغ والأساليب المتشابهة: د. محمد محمد داوود، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2008.
- مقاييس اللغة: ابن فارس، ط1، دار الجيل، بيروت: 1991.

References

The Holy Quran

- Rajeh, A. (1978). *Fundamentals of Psychology*. Modern Egyptian press. Alexandria. Egypt.
- Roumieh, W. (1997). *The structure of Arabic poem until the end of Umayyad era*. Saad Elddin press. Damascus.
- Al-Jahiz, A. (1989). *Statement and Explanation* (5th ed.). Al-Khanji Library. Cairo.
- Brockelmann, C. (1959). *History of Arabic Literature* (3rd ed.). Al-Maarif press. Egypt.
- Lowry, D. (2014). *Personality Analysis* (1st ed.). Konoz Al-Maarifa press. Egypt.
- Al-Makarem, A. (2006). *Predicative structures*: C*onditional descriptive adverbial sentences* (1st ed.). Al-Mukhtar Foundation. Cairo.
- Ismail, I. (N.D.). *Psychological interpretation of literature*: Al-Ma'arif press. Egypt
- Al-Jahiz, O. (1958). *The animal* (3rd ed.). Mustafa Albabi Alhalabi library, Egypt.
- Al-Hayali, L. (1989). *Divan Women's Poetry in the Early Islam*. Master's Thesis at Al-Mustansiriya University. Iraq.
- Al-Khansa. (N.D). *Diwan Al-Khansa*. Al-Andalus press. Beirut. Lebanon.
- Hoff, H. (1972). *Time in Literature*. Franklet Corporation for Printing and Publishing. Cairo.

- Al-Amiri, N. (1995). *Umayyad poetry in the standards of ancient Arab critics until the end of the fifth century*. Master's thesis at University of Baghdad. Iraq.
- Khalif, M. (1991). *Women's poetry in our ancient literature*: Al-Gharib Library. Cairo.
- Muslim, A. (1996). *Poetry and poets*: Al-Maarif press. Egypt.
- Al-Muttalibi, A. (1986). *Poets Critics, Studies in Islamic and Umayyad Literature* (1st ed.). General Cultural Affairs press. Baghdad.
- Abbas, H. (1994). *Grayness and old age in Arabic poetry between the Islamic and Umayyad eras*. Master's thesis at university of Baghdad. Iraq.
- Al-Hamdani, S. (1980). *The phenomenon of sadness in the poetry of Nazik Al-Malaika, its moral and artistic causes and issues*. Master's thesis at university of Mosul. Iraq.
- Nahr, H. (2008). *Applied Semantics in Arabic Heritage*. World of Modern Books. Amman. Jordan.
- Rasheeq. A. (2007). *The Mayor in The Merits and Etiquette of Poetry*. Modern Library press. Sidon. Beirut.
- Al-Askari, A. (2006). *Linguistic differences* (4th ed.). Al-Kutub Al-Alami press. Beirut.
- Al-Dakhili, H. (2010). *The Poetic Space of the Thieves Poets in the Pre-Islamic and Islamic Ages* (1st ed.). Al-Hamid press. Amman.
- Ibn Manzoor, A. (1992). *Al-Arab Speech* (3rd ed.). Al-Sader press. Beirut.
- Daoud, M. (2008). *A dictionary of convergent semantic differences in the Holy Qur'an to clarify the distinguishing features between words of similar meaning and similar formulas and methods*: Al-Gharib for printing and publishing. Cairo.
- Fares, A. (1991). *Language Standards* (1st ed.). Al-Jeel press. Beirut.